العلاقة بين اللغة العربية ولغات المشرق العربي القديم (اللغات السامية)

أ. د. عيد مرعي(*)

تُقسم لغات المشرق العربي القديم (اللغات السامية)، بحسب موقع انتشارها الجغرافي في الجزيرة العربية، إلى ثلاث مجموعات هي:

١- **المجموعة الشمالية الشرقية**: وهي التي انتشرت خاصَّةً في بلاد الرافدين (العراق القديم) وشمال شرقي سورية، وتشمل اللغة الأكادية بلهجاتها المتعددة: الأكادية القديمة، والبابلية القديمة، والبابلية الوسطى، والبابلية الحديثة، والبابلية المتأخرة، والآشورية القديمة، والآشورية الوسطى، والآشورية الحديثة.

٢- **المجموعة الشمالية الغربية**: وهي التي انتشرت في بلاد الشام وبلاد الرافدين والمناطق التي وصلها الفينيقيون في حوض البحر المتوسط وشمالي أفريقيا، وتشمل اللغات الأمورية والكنعانية بلهجاتها المتعددة: الأوجاريتية، والفينيقية والپونية، وكنعانية العهد القديم والمؤابية والعمونية والأدومية، وتضم اللغة الآرامية بلهجاتها الكثيرة الشرقية، والغربية.

(*) ألقى الأستاذ الدكتور عيد مرعي هذه المحاضرة في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بدمشق بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ٢٠٢١م.

٣- **المجموعة الجنوبية الغربية**: وهي التي انتشرت في شمالي شبه الجزيرة العربية وجنوبها الغربي والحبشة وشرقي أفريقيا، وتضم لغات العرب الشمالية والجنوبية ولغات الحبشة.

وكان تشابه اللغات العربية والعبرية والآرامية والحبشية القديمة (الجعزية) قد لفت انتباه بعض المهتمين بها في أوروبا منذ القرن السابع عشر الميلادي فسموها «اللغات الشرقية». وفي عام ١٧٨١ سماها المؤرخ الألماني أوغست لودڤيغ شلوتسر (١٧٣٥-١٨٠٩) «اللغات السامية». واعتمد في ذلك على الإصحاح العاشر من سِفر التكوين في العهد القديم الذي يقسِّم شعوب الأرض إلى ثلاث مجموعات نسبة إلى أولاد نوح: سام وحام ويافث.

وكان اللغوي العربي الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى عام ١٧٥هـ/ ٧٨٦م قد أشار إلى التشابه بين اللغتين الكنعانية والعربية في معجمه المعروف بـ «العين» بقوله: «وكنعان بن سام بن نوح يُنسب إليه الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغةٍ تقارب العربية». (باب العين والكاف والنون) وأشار المفكر العربي الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٩٩٤-١٠٦٤م) إلى القرابة اللغوية بين اللغات العربية والعبرية والسُّريانية (وهي التي كانت معروفة في زمنه)، وشبَّه تلك القرابة بقرابة لهجات اللغة الواحدة[(١)].

شاعت تسمية «اللغات السامية» بعد شلوتسر ولاقت قبولًا وانتشارًا بين المختصين في تاريخ الشرق القديم ولغاته، ولا سيما بعد اكتشاف لغات ولهجات أخرى لم تكن معروفة سابقًا بين المختصين في تاريخ المشرق العربي القديم كالأكادية والأوجاريتية، والفينيقية، والإبلوية، والأمورية، وبعض لغات العرب الشمالية والجنوبية والحبشية. وهي بحسب رأي الأب الفرنسي

(١) ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، طبعة القاهرة، مراجعة أحمد شاكر، ١/ ٣٠.

هنري فليش H. Fleisch ليست أكثر من اصطلاح الهدف منه تسهيل البحث العلمي على المختصين باللغات، دون أن تكون لها أية صفة عنصرية[٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك مجموعة من الصفات تتميز بها هذه اللغات نذكرها باختصار:

أ- معظم الكلمات فيها مشتقة من جذر ثلاثي مؤلف من ثلاثة حروف ساكنة أو أصوات، لذلك سُميت ثلاثية الجذر triconsonantal root. وثمة كلمات ثنائية أو رباعية الجذر، إلا أنها قليلة بالمقارنة بالكلمات ثلاثية الجذر.

ب- الفعل يأتي غالبًا في بداية الجملة باستثناء اللغة الأكادية التي يأتي الفعل فيها في نهاية الجملة، وذلك بتأثير من اللغة السومرية.

ج- الصفة تتبع الموصوف في جميع حالات الإعراب.

د- تعتمد الكلمات فيها على الحروف الساكنة consonants (باستثناء الأكادية) في كتابتها، وتمثل الحروف الصوتية أو اللينة vowels الألف والواو والياء.

هـ- لا تعرف هذه اللغات إلا المذكر والمؤنث، ولا وجود فيها للمحايد كما هو الحال في اللغات الهندو أوروبية (بالإنكليزية it، وبالألمانية es).

و- العدد من ثلاثة إلى عشرة بعكس المعدود، فعندما يكون المعدود مذكرًا يأتي العدد مؤنثًا، والعكس صحيح (ثلاثة رجال وثلاث نساء).

ز- فيها حروف حلقية، أي: تلك الأصوات التي تخرج من الحلق (الهمزة والهاء والعين والغين والحاء والخاء) وحروف إطباق (القاف والصاد والضاد والطاء والظاء) يصعب لفظها على غير أهل هذه اللغات.

ح- تتشابه فيما بينها في تكوين الاسم من حيث جنسه (مذكر ومؤنث)،

(٢) Fleisch, H., Introduction a L,Etude des lengues semitiques, Paris 1947, P. 18.

وعدده (مفرد ومثنى وجمع).

ط- تتشابه المفردات الدالة على أعضاء الجسم (لسان، يد، رأس، عين... إلخ)، وعلى صلة القرابة (أب، أم، ابن، أخ، أخت... إلخ)، وعلى أسماء الحيوانات والنباتات (جمل، دب، كلب، حمار، عنب، قمح، تين)، وعلى أسماء العدد (واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.... إلخ)، وهو ما يدل على الأصل المشترك لهذه اللغات.

ي- تغير نطق بعض الحروف المتقاربة لفظًا، كالشين التي تصبح سينًا وبالعكس، ونطق التاء طاءً، والحاء خاءً، والصاد ضادًا، والذال دالًا.

ك- تتشابه هذه اللغات في الضمائر المنفصلة والمتصلة والملكية وفي طريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف، كما تتشابه في أسماء الإشارة وأدوات الاستفهام، وفي المشتقات (المصدر، اسم الفاعل، اسم المفعول... إلخ).

ل- يُكوَّن المؤنث فيها بإضافة تاء التأنيث إلى نهاية الاسم المذكر.

لغات المجموعة الشمالية الشرقية:

تشمل اللغة الأكادية «ليشانوم أكَّاديتوم» lišanum Akkaditum التي تُعَدُّ أقدم لغة من لغات المشرق العربي القديم وأغناها بالمفردات، ولهجاتها[٣]. وأقدم الأدلة على وجودها أسماء الكثير من ملوك وحكام المدن السومرية في عصر السلالات السومرية الباكر (نحو ٣٠٠٠-٢٣٥٠ ق.م). فملوك مدينة إريدو Eridu (موقعها الحالي معروف باسم أبو شهرين في جنوبي العراق)، وهم أول ملوك حكموا قبل «الطوفان» (فيضان مدمر لنهري دجلة والفرات)، بحسب قائمة الملوك السومرية، كانوا يحملون أسماءً أكادية

(٣) Von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, Rom 1952.
سليمان، عامر، اللغة الأكدية (البابلية - الآشورية)، طبعة منقحة ومزيدة، الموصل ٢٠٠٥.

(ألـوليم، ألالجـار). وكـذلك معظـم ملـوك مدينـة كـيش (بـابوم، كـاليبوم، قالوموم، زوقاقيب)، وغيرها من المدن السومرية الأخرى. وهـذا يـدل علـى قِدم وجود الأكاديين في بلاد الرافدين، واختلاطهم بالسومريين وغيرهم مـن الجماعات البشرية التي كانت هناك منذ أقدم العصور.

يبدأ ظهور نصوص أكادية كاملة من نحو ٢٥٠٠ ق. م مكتوبـة بهـذه اللغـة أو اللسان الذي سمي بهذا الاسـم نسـبة إلـى مدينـة أكَّـاد Akkad (موقعهـا غيـر معروف حتى الآن) التي اتخذها شاروكين الأكادي Sharrukin عاصمة لمملكتـه التي أسسها نحو ٢٣٥٠ ق. م والتي سميت نسبة إلى هذه المدينة أيضًا.

دخلت اللغة الأكاديـة مرحلـة جديـدة مـن التطـور والانتشـار مـع قيـام الإمبراطورية الأكادية التي ضمت بلاد الرافدين وشمالي سورية وبلاد عيلام وأجزاءً واسعة من هضبة الأناضول خلال الزمن الممتد من نحو ٢٣٥٠ إلـى نحو ٢١٥٩ ق. م. وبالتأكيد كانت اللغة الأكادية اللغة الرسمية فيها، وكُتبـت بها آلاف النصوص الرسمية وغير الرسمية التـي عُثـر علـى أعـداد منهـا فـي المدن والمناطق التي خضعت للدولة الأكادية.

وبخـلاف المـألوف والمفتـرض لـم يتوقـف اسـتخدام اللغـة الأكاديـة وانتشارها في مناطق الشرق القديم المختلفة مع سقوط أكاد في عـام ٢١٥٩ ق. م على أيدي الغوتيين، وقيام دول وممالك جديدة، ومع دخول جماعات بشرية جديدة إلى بلاد الرافدين. فالغوتيون، وهم جماعـات بشـرية متوحشـة جاءت من المناطق الجبلية (جبال زاغروس) الواقعـة شـرق بـلاد الرافـدين، وأسقطت الدولة الأكادية واحتلت العاصمة أكـاد = اسـتخدم ملوكهـا اللغـة الأكادية في تدوين كتاباتهم، وأطلقوا على أنفسهم الألقاب الملكيـة الأكاديـة. والسبب في ذلـك هـو أن هـذه الجماعـات كانـت بدائيـة لا تعـرف الكتابـة،

ولغتها غير مدونة. واحتلت اللغة الأكادية مكانة معتبرة في عصر مملكة أور الثالثة السومري (٢١١١-٢٠٠٤ ق.م) الذي سادت فيه اللغة السومرية لغةً للحكم والإدارة والأدب، وحمل ثلاثة من ملوك هذه المملكة أسماءً أكادية (أمار سين Amar-Sin، و شو سين Šu-Sin، و إبِّي سين Ibbi-Sin).

وساد استخدام اللغة الأكادية في الممالك الأمورية التي نشأت في بلاد الرافدين وسورية في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. ويمكن أن يكون السبب في ذلك أن لغة هذه الجماعات البدوية التي جاءت من بادية الشام، وهي الأمورية، كانت غير مكتوبة، وتشبه اللغة الأكادية في قواعدها ومفرداتها إلى حدٍ كبير، لذلك لم يجد الحكام والملوك الأموريون غضاضة في استخدام اللغة الأكادية ذات التقاليد الكتابية العريقة في مراسلاتهم وكتاباتهم الملكية وقوانينهم. وأبرز مثال على ذلك قانون حمورابي ملك بابل المشهور (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) ومحفوظات مملكة ماري الملكية (النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد).

واستمر استخدام اللغة الأكادية في بلاد بابل في العصر الكاشي (١٥٩٥-١١٧٠ ق.م) الذي اتصف بسيطرة حكام أجانب على السلطة في تلك المنطقة.

وأصبحت اللغة الأكادية لغةً عالمية في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، وأبرز مثال يدلّ على ذلك رسائل تل العمارنة التي أرسلها ملوك ممالك الشرق القديم المختلفة إلى فرعوني مصر أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (أخناتون) في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والتي كُتبت باللغة الأكادية والكتابة المسمارية، وعُثر عليها حديثًا في موقع تل العمارنة في وسط مصر بالقرب من مدينة أسيوط.

واستمر استخدام اللغة الأكادية في بلاد الرافدين في الألف الأول قبل الميلاد من قبل الآشوريين والكلديين (البابليين الجدد)، أي: في الإمبراطورية الآشورية الحديثة والإمبراطورية البابلية الحديثة، وكُتبت بها آلاف الوثائق والحوليات الملكية، وأبرز مثال على ذلك مكتبة آشوربانيبال التي عُثر عليها في العاصمة نينوى، وتضم وثائق في مختلف فروع المعرفة.

لغات المجموعة الشمالية الغربية:

تشمل كما ذكرنا قبلُ اللغة الكنعانية ولهجاتها المختلفة، واللغة الآرامية ولهجاتها المتعددة.إن اللهجات المعروفة على أنها لهجات كنعانية: الأوجاريتية (لغة أوجاريت التي تُعرف بأنها كنعانية شمالية)، واللغة الفينيقية (الكنعانية الوسطى)، ولهجتها البونية: لهجة قرطاجة ومستوطناتها في حوض البحر المتوسط الغربي، ولغة العهد القديم، واللهجات المؤابية والعمونية والأدومية (الكنعانية الجنوبية) = تفرعت هذه اللهجات من لغة أم أولى سادت في سورية منذ أقدم العصور. لكن المشكلة أن هذه اللغة الأم الأولى غير معروفة، فلم تُكتشف حتى الآن أية نصوص كُتبت بها، إلا أن بعض المؤشرات الواردة في نصوص مختلفة من سورية تشير إلى وجودها منذ الألف الثالث قبل الميلاد. فلغة إبلا المكتشفة حديثًا فيها عناصر لغوية كنعانية، وكذلك الحال في رسائل تل العمارنة التي كُتبت باللهجة البابلية الوسطى، التي كتب الكثير منها أمراء كنعانيون سوريون خاطبوا بها الفرعون المصري أمنحوتب الثالث وابنه أمنحوتب الرابع (أخناتون) صاحب أول دعوة لعبادة إله واحد (آتون) في التاريخ.

ولكن قبل الحديث عن اللهجات الكنعانية التي ذكرناها نود الإشارة إلى **لغة إبلا** التي استُعملت في مملكة إبلا Ebla في شمالي سورية في

النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد[٤]، والتي تعدُّ أقدم لغة معروفة من سورية القديمة، وكانت معروفة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وتجمعها مع لغات المشرق العربي القديم الأخرى، كالأوجاريتية والأمورية والفينيقية، وكنعانية العهد القديم، والآرامية، ولغات العرب الجنوبية والشمالية، صفات مشتركة متعددة، تشير إلى وجود جذور مشتركة لكل هذه اللغات، ربما تعود إلى العصور السابقة لابتكار الكتابة.

هناك لغة أخرى يمكن القول عنها: إنها شمالية غربية، ألا وهي **اللغة الأمورية** التي استخدمتها القبائل الأمورية التي انتشرت في بلاد الرافدين وسورية في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد منطلقة من بادية الشام، وسيطرت على الحكم في مدن بابل وآشور وماري وإشنونا وإسين ولارسا وحلب وقطنة وجُبيل وحاصور. لكن هذه القبائل لم تستخدم لغتها للتدوين؛ لأنها لم تكن مدونة، وليس لها تقاليد كتابية معروفة، واستخدمت عوضًا عنها اللغة الأكادية ذات التقاليد الكتابية العريقة المنتشرة في بلاد الرافدين.

بالعودة إلى الحديث عن بلاد كنعان واللهجات الكنعانية نشير إلى أن المنطقة الساحلية من بلاد كنعان، أي: منطقة الساحل السوري بالمفهوم التاريخي، سمَّاها الإغريق «فينيقيا» Phoinike؛ لأن سكانها اشتُهروا بصناعة الأنسجة المصبوغة باللون الأحمر الأرجواني الذي كانوا يستخرجونه من حيوان بحري قشري اسمه «موريكس» Murex. ازدهرت هنا في حقب زمنية متباعدة مدن كثيرة كانت مراكز إبداعٍ حضاري وإنجازات مهمة جدًّا في تاريخ البشرية. وأشهر هذه المدن أوجاريت التي ابتكر سكانها أقدم أبجدية عرفها الإنسان في التاريخ في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وكتبوا بها في عصر ازدهار أوجاريت

(٤) مرعي، عيد، تاريخ مملكة إبلا وآثارها وحضارتها، دمشق ٢٠١٥.

ما بين ١٤٠٠-١٢٠٠ ق.م نصوصًا كثيرة بلغة لم تكن معروفة قبل أن تكتشف أوجاريت في عام ١٩٢٩ بعثة أثرية فرنسية بقيادة كلود شيفر Ch. Schaeffer.

١ - اللغة الأوجاريتية(٥):

سُميت اللغة الأوجاريتية نسبة إلى أوجاريت مكان استخدامها. وقد كُتبت بأبجدية مؤلفة من ثلاثين حرفًا مسماريًّا ساكنًا ممثل فيها حرف الألف بثلاث إشارات مسمارية تُقرأ: أ، إي، أُو.

دوَّن سكان أوجاريت بلغتهم وبالكتابة الأبجدية المسمارية التي ابتكروها آلاف النصوص الاقتصادية، والحقوقية، والدينية، والمعاهدات، والرسائل، والأساطير التي تتحدث عن معتقداتهم الدينية ونظرتهم إلى الكون والحياة. وأشهر تلك الأساطير أسطورة «دورة بعل» وأسطورة «دان إيل وابنه أقهات»، وأسطورة «كيريت»، وأسطورة «مولد الآلهة» وغيرها، التي تُعَدُّ قطعًا أدبية رائعة عبَّر الإنسان بوساطتها عن نظرته إلى الكون والحياة والمخلوقات بأسلوبٍ شعري رائع.

توصف اللغة الأوجاريتية بأنها لغة معربة تشبه في قواعدها اللغات العربية والأكادية والآرامية والفينيقية وغيرها من لغات المشرق العربي القديم. ويتطابق فيها نظام الجملة الفعلية والاسمية مع نظام الجملة الفعلية والاسمية في اللغة العربية، ففي اللغتين تبدأ الجملة الفعلية بالفعل يليه الفاعل فالمفعول وبقية أجزاء الجملة، بخلاف اللغة الأكادية التي تأثرت باللغة السومرية التي يأتي الفعل فيها في آخر الجملة. وتبدأ الجملة الاسمية بالمسند إليه (المبتدأ) ثم المسند (الخبر). وفي اللغة الأوجاريتية معظم

(٥) Segert, S., A Basic Grammer of the ugaritic language, university of California press 1997.

الأوزان الفعلية التي في اللغة العربية. وللاسم ثلاث حالات إعرابية: رفع بالواو، ونصب بالألف، وجر بالكسر؛ وله ثلاث حالات مفرد ومثنى وجمع. وتتطابق ضمائر الرفع المنفصلة في العربية والأوجاريتية، وتُرفع الأفعال في اللغة الأوجاريتية بثبوت النون، ونصبها بحذف النون، مشبهة بذلك الأفعال الخمسة في اللغة العربية.

٢- اللغة الفينيقية الكنعانية(٦):

هي اللغة التي تكلمها سكان مدن الساحل السوري (من منطقة لواء إسكندرون في الشمال إلى غزة في الجنوب) وقبرص منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل، والمعروفة من خلال الكثير من النقوش التي اكتشفت في تلك المدن، وفي المدن والمناطق التي وصلها التجار الفينيقيون، ولا سيما في مناطق وجزر حوض البحر المتوسط حتى إسبانيا.

كان الجزء المستوطن بكثافة من فينيقيا ذلك الممتد من جبال الأمانوس في الشمال إلى جبل الكرمل في الجنوب، ويزيد طوله على ثلاثمئة كيلومتر. وقد نشأت فيه مدن مهمة أشهرها من الشمال إلى الجنوب: أوجاريت، أرواد، جُبيل، بيروت، صيدا، صور، حيفا، عكا، يافا.

قسَّم الباحثون تاريخ اللغة التي تكلمها الفينيقيون الكنعانيون إلى ثلاث مراحل أساسية هي: الفينيقية المبكرة (بين القرنين الحادي عشر والتاسع قبل الميلاد)، والفينيقية الوسطى (القرون الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد)، والفينيقية المتأخرة (من القرن الخامس إلى الأول قبل الميلاد).وقد كُتبت تلك اللغة بأبجدية جديدة غير معروفة سابقًا في الشرق الأدنى القديم، وتختلف عن أبجدية أوجاريت التي كانت أقدم منها من حيث شكل حروفها، أو عددها، أو

(٦) حامدة، أحمد، المدخل إلى اللغة الكنعانية الفينيقية، جامعة دمشق ١٩٩٤-١٩٩٥

اتجاه كتابتها. فهي ليست أبجدية مسمارية كأبجدية أوجاريت، وعدد حروفها اثنان وعشرون حرفًا، واتجاه كتابتها من اليمين إلى اليسار. ويبدو أن السبب الأساسي في ابتكار الأبجدية كان تجاريًّا؛ لأن العمليات التجارية كانت بحاجة إلى وسيلة سهلة للتدوين، لا إلى كتابة معقدة كالكتابة المسمارية الرافدية أو الهيروغليفية المصرية، فكان ابتكار أبجدية أوجاريت أولًا، ثم طرأ عليها تحسين واختصار، فظهرت الأبجدية الفينيقية في مدينة جبيل.

وأقدم الكتابات التي دُوِّنت بها تعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وهي نقش أحيرام Ahiram (أخي ممجد، سامي، موقر) ملك مدينة جُبيل الذي أمر بنقشه على حافة غطاء تابوته ابنه «إتُّوبعل» Ittobaal (معه بعل)، ويتألف من خمسة سطور.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه عُثِرَ على الكثير من النقوش الفينيقية، في فينيقيا، وفي مناطق سورية أخرى، وفي مصر وتركيا وقبرص واليونان وإسبانيا وسردينيا وكريت ومالطة وغيرها من الأماكن التي وصلها التجار الفينيقيون. ويمكن تصنيفها، بحسب موضوعاتها، إلى نقوشٍ نذرية، ونقوش قبور، ونقوش عمرانية، ونقوش إدارية.

بمقارنة أبجدية جبيل بأبجدية أوجاريت نجد أن عدد حروف أبجدية جبيل (٢٢) أقل من عدد حروف أبجدية أوجاريت (٣٠)، والسبب في ذلك أن لفظ ستة حروف (ب ج د ك ف ت) كان بطريقتين، مثلًا: الجيم يمكن أن تُلفظ غينًا، والدال يمكن أن تُلفظ ذالًا، والكاف يمكن أن تُلفظ خاءً.... إلخ. وبذلك يبلغ العدد الكلي للأبجدية الفينيقية التي استخدمها الآراميون والعبريون وغيرهم ثمانية وعشرين حرفًا، وهو العدد الذي يطابق عدد حروف الأبجدية العربية (مع بعض الاختلاف في لفظ بعض الحروف).

وأصبحت الأبجدية الفينيقية الأساس لمعظم أبجديات العالم القديم كالأبجدية الآرامية والعبرية والعربية الجنوبية والإغريقية واللاتينية والإيرانية، وربما بعض الأبجديات الهندية (عن طريق الأبجدية الآرامية). إن السبب الذي جعل الفينيقيين الكنعانيين يتبعون ترتيب أبجد هوز... غير معروف، وربما كان يرتبط ذلك بمعتقداتهم الدينية التي تنظر نظرة قدسية إلى بعض الحيوانات أو الأشياء مثل الثور الذي كان رمزًا مقدسًا للعديد من الآلهة في الشرق الأدنى القديم، وعلى رأسها الإله «بعل» إله الخصوبة والأمطار والرعود والبروق. وحرف الباء هو الحرف الأول من كلمة بيت التي تعني من جملة ما تحمل من معانٍ «معبدًا».

انتقلت الأبجدية الفينيقية إلى بلاد الإغريق، فكتبوا بها لغتهم التي لم تكن تعرف الكتابة بعد، وذلك على يد قدموس kadmus الأمير الصوري الذي غادر مدينته، بحسب الأسطورة الإغريقية المشهورة «أسطورة أوروبا» للبحث عن شقيقته «أوروبا» التي اختطفها زيوس كبير الآلهة الإغريقية. ويتحدث المؤرخ الإغريقي هيرودوت أيضًا عن انتقال الأبجدية من فينيقيا إلى بلاد الإغريق على يد قدموس.

٣- اللهجة الفينيقية البونية:

تطورت عن اللغة الفينيقية لهجة جديدة أطلق عليها الرومان في القرن الخامس قبل الميلاد وعلى الفينيقيين الذين تكلموها، وانتشروا في حوض البحر المتوسط الغربي، اسم «بونية» Poeni, Punicus، الذي يبدو أنه مشتق من كلمة «Phoenic» الإغريقية، أي: فينيقي. وقد شاع استعمال اسم «بونية» في قرطاجة Karthago (بالفينيقية قرت حدشت: المدينة الحديثة) أشهر المستوطنات التجارية الفينيقية في حوض البحر المتوسط الغربي (على

ساحل تونس الشمالي) التي أسسها تجار من مدينة صور في القرن التاسع قبل الميلاد، وتحولت في القرن الثالث قبل الميلاد إلى دولة قوية دخلت في صراعٍ مرير مع روما من أجل السيطرة والتوسع في حوض البحر المتوسط الغربي انتهى بدمار قرطاجة في عام ١٤٦ ق. م وسيطرة الرومان على ساحل أفريقية الشمالي كلّه.

إن النصوص المكتوبة باللهجة البونية، المكتشفة قليلة، وأقدمها يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وهو نقش نذري عُثر عليه في جزيرة إبيزا Ibiza الإسبانية. وهي تُظهر تأثرًا كبيرًا باللغتين الإغريقية واللاتينية، فأصوات الحلق فيها ضعيفة، ويحدث فيها خلط بين حرفي الهمزة والعين، وبين حرفي الهاء والحاء. واستمر استخدام اللهجة البونية بعد دمار قرطاجة في مناطق البونيين في شمالي أفريقيا وإسبانيا. وبعض تلك النصوص ثنائي اللغة (بونية – لاتينية) من القرن الأول الميلادي.

٤ – كنعانية العهد القديم (اللغة العبرية)(٧):

هي اللغة التي دُونت بها أسفار العهد القديم، وبعض المؤلفات الدينية اليهودية الأخرى كالتلمود والمشنا. وكانت تُعرف باسم «شفة كنعان» (سِفْر إشعياء ١٩/ ١٨)، لا بالعبرية التي تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد. وقد تأثرت اللغة العبرية التي استخدمت في مملكة إسرائيل الشمالية باللغة الكنعانية الفينيقية، واللغة العبرية التي استخدمت في مملكة يهوذا الجنوبية باللغة الآرامية الأقدم، وكُتبت بالخط الآرامي المربع الذي أوجده الآراميون.

إن أقدم نص عبري مكتوب ومعروف هو ما يُعرف باسم «تقويم جيزير»

(٧) Jenni, E., Lehrbuch der Hebraischen Sprache des Alten Testaments, Frankfurt am Main 1981.

المدون على حجرٍ كلسي يعود تاريخه إلى عام ٩٢٥ ق. م. وهو محفوظ حاليًّا في متحف إستنبول. أما أشهر مدونات اللغة العبرية فهو «التوراة اليهودية (العهد القديم بلغة المسيحيين) المؤلفة من ثلاثة أجزاء: التوراة، والمكتوبات، والأنبياء. وتسمى هذه الأجزاء الثلاثة بالعبرية «تنخ»، وهي الحروف الأولى من الكلمات الثلاث: توراه: معرفة، شريعة، نقيم: أنبياء، كيتوڤيم: كتابات. وأقدم النصوص المدونة باللغة العبرية الباقية حتى اليوم بنسختها الأصلية هي «لفائف قمران» التي اكتشفت في عام ١٩٤٧ في مغاور قمران بالقرب من البحر الميت. ويعود تاريخها إلى ما بين القرن الثالث قبل الميلاد وأواخر القرن الأول الميلادي. وهي تُظهر اختلافات كبيرة عن النسخ المستخدمة حاليًّا من العهد القديم.

بوجهٍ عام يمكن تقسيم تاريخ كنعانية العهد القديم، أو اللغة العبرية القديمة إلى أربع مراحل:

الأولى تبدأ من نحو القرن العاشر قبل الميلاد حتى سقوط مملكة يهوذا في العام ٥٨٦ ق. م على يد نبوخذ نصَّر الثاني ملك بابل. وقد أظهرت فيها اللغة العبرية تأثرًا كبيرًا باللغة الفينيقية. وأهم النصوص التي تعود إلى هذه المرحلة «تقويم جيزير» الذي يعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد. وقد عُثر عليه في موقع مدينة جيزير Gezer الكنعانية (٥٠ كم شمال غربي القدس)، وأسفار العهد القديم التي دُوِّنت في نهاية هذه المرحلة على مراحل، ونقش سلوان الذي يعود تاريخه إلى نحو ٨٠٠ ق. م

أما المرحلة **الثانية** من تاريخ كنعانية العهد القديم فتمتد من بدايات القرن السادس إلى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وتميزت بسيطرة اللغة الآرامية على العبرية نتيجة سيطرة الآراميين اللغوية والثقافية على مناطق

الشرق الأدنى القديم المختلفة. وتمثل هذه المرحلة بعض أسفار العهد القديم، وبعض النصوص الأدبية والدينية كالمدراش التي هي شرح لنصوص العهد القديم.

دخلت كنعانية العهد القديم في العصور الوسطى مرحلة جديدة، هي **المرحلة الثالثة**، عُرفت فيها بالعبرية الربانية أو التلمودية، لأن مؤلفاتها كتبها رجال الدين الربانيّون، وبلغ عددها ٦٣ سِفرًا تتعلق بشؤون الدين والقانون والتاريخ؛ وتتصف بوجود كلمات آرامية كثيرة فيها مع استعمال صيغة الجمع الآرامية، وكثرة استعمال اسم الفاعل والفعل المضارع، وبوجود كلمات إغريقية ولاتينية فيها.

أما المرحلة **الرابعة** (العصر الذهبي: دور هَزَهب) من تاريخ اللغة العبرية القديمة فتمتد من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وازدهرت في ظل الحضارة العربية الإسلامية، ولا سيما في الأندلس؛ وكُتبت بها نصوص دينية وأدبية وفلسفية.

أما اللغة العبرية الحديثة المستخدمة في فلسطين المحتلة فتظهر تأثرًا كبيرًا باللغات الأوروبية الحديثة، إذ تغيب منها أصوات الحلق والإطباق، وفيها مفردات كثيرة من اللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية والروسية.

استعار اليهود الخط الفينيقي لكتابة لغتهم، ثم تبنَّوا الخط الآرامي المربع الذي أوجده الآراميون، ثم كتبوا حديثًا بخط يدوي خاص بهم، وأعطوا الحروف قيمًا عددية كما فعل الآراميون قبلهم.

٥- اللهجة المؤابية:

هي لهجة مملكة مؤاب التي نشأت شرق البحر الميت (وسط الأردن حاليًّا) في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. والنقش الوحيد المكتوب بها هو

نقش «ميشع بن كيموش» ملك مؤاب (يُسمى أيضًا نقش مؤاب)، الذي يعود تاريخه إلى أواسط القرن التاسع قبل الميلاد، ويتألف من أربعة وثلاثين سطرًا منحوتة على حجرٍ بازلتي، اكتشفه حديثًا في بلدة ذيبان الواقعة بالقرب من مدينة مأدبا بالأردن في عام ١٨٦٨ بعثة فرنسية. وهو محفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس في فرنسا.

اللغة الآرامية(٨):

هي لغة الجماعات الآرامية التي انتشرت في مناطق واسعة من بلاد الرافدين وسورية في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد وفي الألف الأول قبل الميلاد، وأسست ممالك مستقلة ذاتيًّا كمملكة بيت بخياني وعاصمتها جوزانا في منطقة رأس العين الحالية في شمال شرقي سورية، ومملكة بيت زماني في أعالي بلاد الرافدين حول مدينة آمد (ديار بكر الحالية) في جنوب شرقي تركيا، ومملكة أرپاد في شمالي سورية بالقرب من حلب (تل رفعت الحالي)، ومملكة شمأل (زنجرلي حاليًّا) في جبال الأمانوس، وممالك حماة ودمشق وصوبا وغيرها.

كتب الآراميون لغتهم بأبجدية مؤلفة من اثنين وعشرين حرفًا ساكنًا مشتقة من الأبجدية الفينيقية، وتتبع نفس ترتيب الحروف، وتُكتب الحروف منفصلة بعضها عن بعض، وكل كلمة مفصولة عن الأخرى بوساطة خط شاقولي قصير أو نقطتين عموديتين. وكان تحويل الخط القديم الذي استعمل لكتابة آلاف النقوش الآرامية إلى خط أشكال حروفه مربعة في نهاية الألف الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي، وأُعطيت الأحرف قيمًا عددية.

تتميز اللغة الآرامية بمجموعة من الخصائص والصفات أهمها:

(٨) إسماعيل، فاروق، اللغة الآرامية القديمة، جامعة حلب ١٩٩٧.

١ – تأتي أداة التعريف فيها التي هي ألف ممدودة في آخر الاسم مثل «لِشانا»: لسان، «شوقا»: سوق، «أرقا»: أرض، «بيتا»: بيت.

٢ – الدال والذال صورتان صوتيتان لوحدة صوتية واحدة، وبالتالي تُنطق الدال بدلًا من الذال أو العكس. وهذا ما يُلاحظ حاليًّا في لهجات بلاد الشام المحكية، إذ يُقال مثلًا: «دهب» بدلًا من ذهب، و«هدا» بدلًا من هذا، و«أخد» بدلًا من أخذ، و«أدن» بدلًا من «أذن».

٣– ليس في الآرامية حرف الثاء، ويُستخدم بدلًا منه حرف التاء، مثلًا ثوم يُلفظ «توما»، و ثور «تورا». وهذا معروف في بعض اللهجات المحكية حتى اليوم في بعض الكلمات مثل «تلاتا» بدلًا من «ثلاثاء»، و«التنين» بدلًا من «الاثنين»، و«توب» بدلًا من ثوب.

٤ – لم تعرف اللغة الآرامية الإعراب، فالحرف الأخير من كل كلمة يكون ساكنًا.

٥ – تُكتب الحروف منفصلة بعضها عن بعض.

٦ – تشبه ضمائر الرفع المنفصلة نظيراتها العربية.

مرت اللغة الآرامية بمراحل تطورية متعددة، وتفرعت منها لهجات كثيرة، نتيجة انتشارها في مناطق واسعة، ومجاورة الآراميين لجماعات وشعوب تكلمت بلغات أخرى أثرت وتأثرت بالآرامية. نورد فيما يلي المراحل التطورية التي مرت بها اللغة الآرامية، واللهجات التي تفرعت منها:

١ – الآرامية القديمة المبكرة:

هي لغة الممالك الآرامية الأقدم التي قامت في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثامن قبل الميلاد، وتمثلها أفضل تمثيل النقوش الملكية والمعاهدات (نقوش السفيرة المدونة على ثلاثة نُصب عُثر عليها في قرية السْفيرة الواقعة جنوب شرقي حلب، والتي تعدُّ من أقدم النقوش الآرامية).

٢- الآرامية القديمة المتأخرة:

كُتبت بها نصوص تعود إلى الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى القرن السادس قبل الميلاد، وجاءت شواهدها من كل مناطق الشرق الأدنى القديم، وأصبحت لغة المراسلات السائدة في تلك المناطق. فهناك رسالة مؤرخة ما بين ٧٣٥-٧٣٢ ق.م كتبها ملك صور الفينيقي باللغة الآرامية إلى الملك الآشوري تيكلات بيليصر الثالث.

يبدو أن اللغة الآرامية أخذت في هذه المرحلة من تاريخها تحل بالتدريج محل اللهجة الآشورية الحديثة، إذ نجد كثيرًا من الوثائق التجارية التي كانت تُكتب باللهجة الآشورية، تحوي ملخصًا لفحواها باللغة الآرامية مع أسماء التجار والشهود، وهذا يدل بوضوح على انتشار اللغة الآرامية بسبب سهولة كتابتها.

٣- الآرامية الإمبراطورية: Reiches Aramäisch

هي الآرامية التي سمَّاها المؤرخ والمستشرق الألماني يوسف ماركفارت Markwart J. (١٨٦٤-١٩٣٠) بهذا الاسم، واستُعملت لغة رسمية في الإمبراطورية الفارسية الأخمينية (٥٥٥-٣٣١ ق.م)، ولا سيما في مقاطعاتها الغربية، بلاد الرافدين وسورية، حيث كانت غالبية السكان تتكلم الآرامية. وكان أهم الأسباب الكامنة وراء ذلك أن اللغة الفارسية كانت حتى تاريخ تأسيس الإمبراطورية الفارسية الأخمينية لغة غير مكتوبة، وليس لها كتابة أو أبجدية خاصة بها؛ فآثر ملوك الإمبراطورية استخدام اللغة الآرامية المعروفة والمنتشرة في مناطق متعددة من إمبراطوريتهم، كي تصبح إدارة شؤون الدولة ممكنة. إن أقدم شواهد الآرامية الإمبراطورية نصوص جزيرة فيلة الواقعة جنوبي مصر بالقرب من أسوان، ويرقى تاريخ أقدمها إلى نحو ٥٣٠ ق. م، إضافة إلى نسخة

آرامية من حِكَم أحيقار مستشار الملك الآشوري سنحريب، وترجمة آرامية لنقش الملك الفارسي الكبير على صخور بهيستون الذي يتحدث فيه عن أعماله وإنجازاته، ونقشه بثلاث لغات هي البابلية والعيلامية والفارسية القديمة.

٤ – الآرامية التوراتية:

هي اللهجة التي كُتبت بها أجزاء كبيرة من بعض أسفار العهد القديم (سِفر عِزرا وسِفر دانيال). ووردت في أسفار أخرى بعض الكلمات الآرامية (سفر التكوين وسفر إرميا). وهذا يدل على استخدام اليهود الآرامية، وتراجع استخدام اللغة العبرية. وحلت الآرامية محل العبرية في عهد المكابيين (١٦٤–٦٤ ق.م). ولاحظ المختصون باللغات القديمة أن اللغة الآرامية بدأت بالانقسام إلى مجموعتين لغويتين من أواخر القرن الأول قبل الميلاد، بناءً على تمايزات نحوية ولفظية بين المجموعة التي انتشرت في بلاد الرافدين، والمجموعة التي انتشرت في سورية، فأطلقوا اسم الآرامية الشرقية على اللهجات التي سادت في المنطقة الأولى، واسم الآرامية الغربية على التي سادت في المنطقة الثانية. وكان الحد الفاصل بين مناطق انتشار لهجات المجموعتين نهر الفرات.

١ـ لهجات الآرامية الشرقية:

تشمل السُّريانية، والمنداعية، واليهودية البابلية، وآرامية الحضر.

أ– **السُّريانية**: (بالسريانية الشرقية لِشانا سُريانا، وبالسريانية الغربية لِشونو سُوريويو).

عُرفت بهذا الاسم الذي يعني «السورية» بعد القرن الرابع الميلادي، أي: بعد انتشار المسيحية التي رغب معتنقوها في تمييز أنفسهم عن بني جلدتهم الآراميين «الوثنيين»، فسمَّوا أنفسهم «سريان»، ولهجتهم «سريانية». وأقدم شواهدها يعود إلى عام ٦ م، وهو نقش جنائزي عُثر عليه في بلدة بيرجيك

التركية الحالية. وقد استُخدمت في مملكة أوسروييني التي كانت عاصمتها «الرُّها»، التي سمّاها السريان «أورهوي، أورها»، والإغريق إديسَّا Edessa، وهي اليوم أورفة عند الأتراك التي تقع بالقرب من منابع نهر البليخ. وتمثل كتابات «بر ديصان» السريانية، وكتابات لوقيانوس السمساطي (١٢٥-١٨٠م) المرحلة الأولى من تطور اللهجة السريانية التي امتدت من القرن الأول إلى القرن الثالث الميلادي؛ وكتب بها الحكيم الإيراني «ماني». وتمتد المرحلة الثانية من عمر اللهجة السريانية من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادي. وقد نشط التأليف والتعليم في هذه المرحلة، وأنشأت المدارس والمكتبات[٩].

ب- **الآرامية المنداعية (المندائية):**

هي لغة الجماعات التي حاولت المزج بين المعتقدات الدينية الرافدية القديمة والمعتقدات اليهودية والمسيحية، واسمهم (المنداعيون)، ويعني «أهل المعرفة» المشتق من فعل «ي د ع» الآرامي الذي يعني: «يعرف». وتذكر المصادر العربية الإسلامية المنداعيين باسم الصابئة، الذين برز منهم في العصر العباسي الفلكي والرياضي ثابت بن قرة الحرَّاني (٨٣٦-٩٠١م) ومحمد بن جابر البتَّاني عالم الفلك والرياضيات المشهور (٨٥٨-٩٢٩م) الملقب ببطليموس العرب، وغيرهما.

ج- **لهجة تلمود بابل:**

هي اللهجة التي دوّن بها رجال الدين اليهود التلمود البابلي في بابل في الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين. ويعد التلمود البابلي أكثر تكاملًا من التلمود الأورشليمي الذي يعدُّ أكثر وضوحًا. وهو المرجع الرئيس للشريعة اليهودية.

(٩) نعمان، ميشيل، الوجيز في اللغة السريانية، جامعة البعث ١٩٩٠-١٩٩١.

د- آرامية الحضر:

هي لهجة مملكة الحضر (بالآرامية حطرا، وبالعربية عربايا) العربية التي قامت في شمالي بلاد الرافدين (جنوب غربي الموصل) في القرن الأول الميلادي، واستمرت حتى منتصف القرن الثالث الميلادي. وعُرفت بمدينة الشمس؛ لأن إله الشمس كان معبودها الرئيس. وعُثر فيها على أكثر من ثلاثمئة نص آرامي ذات صبغة دينية، تؤرخ ما بين ٨٩-٢٣٨م[١٠].

٢- لهجات الآرامية الغربية:

هي اللهجات التي سادت في سورية الطبيعية، وتشمل التدمرية، والنبطية والآرامية اليهودية الفلسطينية، والآرامية المسيحية الفلسطينية، وآرامية السامرة.

أ- الآرامية التدمرية:

هي اللهجة التي استُخدمت في كتابة الكثير من النقوش التدمرية التي يعود تاريخها إلى الفترة الممتدة من العام ٤٤ م إلى العام ٢٧٤ م، والتي عُثر عليها في تدمر ومناطق أخرى في سورية وخارجها.

يمكن تصنيف النقوش التدمرية إلى نقوش تكريمية دُوِّنت على تماثيل لأشخاص كان لهم دور مهم في حياة تدمر، ونقوش نذرية دُوِّنت على مذابح أو تماثيل من أجل التقرب من الآلهة وطلب حمايتها، ونقوش على شواهد القبور دُوِّنت على منحوتات جنائزية للتعريف بأصحابها الموتى وطلب الرحمة لهم، وتذكر أسماء أصحابها كاملة مسبوقة أو متبوعة بكلمة «ح ب ل» التي تعني «وا أسفاه». كانت مادة الكتابة في الغالب الحجر والصخر المنحوت على شكل تماثيل ومعابد ومنحوتات للموتى[١١].

---

(١٠) قام الباحث العراقي فؤاد سفر بنشر كتابات الحضر في عدد من أعداد مجلة سومر التي صدرت في الأعوام ١٩٥١-١٩٥٣، ١٩٥٥، ١٩٦١، ١٩٦٥.

(١١) أحمد، علي صقر، النقوش التدمرية القديمة، الجزء الأول النقوش النذرية، دمشق ٢٠٠٩.

ب- **الآرامية النبطية:**

هي اللهجة التي استخدمها العرب الأنباط في مملكتهم التي أقاموها في منطقة وادي موسى جنوبي الأردن الحالي، وكانت عاصمتها مدينة «الرّقم» أو «الرقيم» التي سمَّاها الإغريق «بيترا» Petraea (البتراء حاليًّا)، أي: الصخر، واليهود «سلْع»: الشق في الصخر، لأنَّها بُنيت في الصخر، وفي منطقة صخرية سماها الإغريق والرومان «بلاد العرب الصخرية» Arabia Petraea. كان الأنباط قبائل عربية هاجرت من شمال غربي شبه الجزيرة العربية في القرن السابع قبل الميلاد إلى منطقة وادي موسى في جنوبي الأردن.

ويرد أقدم ذكر لهم في التاريخ في نصٍ آشوري تاريخه ٦٤٧ ق. م يذكرهم بين أعداء الملك الآشوري المشهور آشور بانيبال.

كتب الأنباط نقوشهم التي يبلغ عدد المكتشف منها نحو خمسة آلاف نقش، بلهجة آرامية سُميت باسمهم (النبطية)، وبخطٍ آرامي مشتق من الخط الآرامي القديم، لأن اللغة العربية التي كانوا يتكلمونها لم تكن مكتوبة في زمنهم. ويرقى تاريخ معظم النقوش المكتشفة إلى القرن الأول الميلادي، عصر ازدهار مملكة الأنباط الأكبر.

ويعود أقدم هذه النصوص إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وقد عُثر عليها في مناطق انتشار الأنباط، وتتصف بأنها قصيرة (وقفية، تذكارية، جنائزية) لا تتضمن معلومات تاريخية(١٢).

ويبدو أنه كان للخط الآرامي النبطي دور في نشوء الأبجدية العربية

---

(١٢) Littmann, E., Nabataean Inscriptions from Egypt, in Bulletin of the Schools of oriental and African studies 1953.

عبابنة، يحيى، اللغة النبطية، دار الشروق، عمَّان ٢٠٠٢.

الشمالية التي استخدمت لكتابة لهجات العرب الشمالية بدءًا من القرن الثالث الميلادي.

ج- **الآرامية اليهودية الفلسطينية:**

بعد أن شاع استخدام اللغة الآرامية بين السكان في فلسطين في أواخر الألف الأول قبل الميلاد، وفي القرون الميلادية الأولى، حتى إن السيد المسيح عليه السلام تكلم بالآرامية (لهجة الجليل) = شرح رجال الدين اليهود التوراة العبرية بالآرامية، فنشأ ما يُعرف بـ «الترجوم» (الترجمة) لأسفار موسى، أي: الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وصار هناك ترجوم أورشليمي نسبة إلى أوروشليم. واستخدم المؤرخ اليهودي الروماني فلاڤيوس يوسيفوس F. Josephos (يوسف بن متيتياهو ٣٧/ ٣٨-٩٨/ ١٠٠م) الذي ألّف عدة كتب، منها كتابه «تاريخ حرب اليهود للرومان» المؤلف من سبعة أجزاء = اللهجة الآرامية اليهودية الفلسطينية، التي كانت آنذاك سائدة في فلسطين، والتي كان يوسيفوس يتقنها. وقد تُرجم الكتاب فيما بعد إلى اللغة الإغريقية، لغة الثقافة والمثقفين في الإمبراطورية الرومانية.

د- **الآرامية الفلسطينية المسيحية:**

هي الآرامية التي استخدمها معتنقو الديانة المسيحية في فلسطين، وتظهر في إنجيل متّى الذي دُوِّن بها، وفي بعض الكلمات والتعابير التي تظهر في أناجيل أخرى.

هـ- **آرامية السامرة:**

هي الآرامية التي استخدمتها جماعة السامريين الذين استوطنوا في منطقة نابلس في فلسطين - وهم أصلًا جماعة يهودية لم تعترف إلا بأسفار العهد القديم الخمسة الأولى التي ترجمتها إلى الآرامية «الترجوم السامري»،

وذلك في القرن الرابع الميلادي - واستخدمتها في كتابة بعض الأناشيد والتراتيل الدينية.

لغات المجموعة الجنوبية الغربية:

هي لغات القبائل العربية التي استوطنت مناطق شبه الجزيرة العربية الشمالية الغربية والجنوبية الغربية، ومناطق الحبشة (إثيوبية) وجيبوتي وإريتريا في شرقي أفريقيا. وتتألف من لغات العرب الشمالية (الصفوية والثمودية واللحيانية)، ولغات العرب الجنوبية (المعينية والسبئية والقتبانية والحميرية)، ولغات الحبشة وما جاورها (الجعزية والتغرية والتغرينية والهررية والأمهرية).

أ- لغات العرب الشمالية:

هي لغات القبائل العربية التي سكنت مناطق نجد والحجاز وشمال غربي شبه الجزيرة العربية وجنوبي سورية منذ القرن الثامن قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادي، وقد دُونت بخط مشتق من خط المُسند الذي ابتُكر في اليمن واستُخدم لتدوين لغات اليمن القديمة. وهي في معظمها نُقشت على الصخور والأحجار في البوادي والصحارى، حروفها غير واضحة وهو ما جعل الباحثين يطلقون عليها اسم مخربشات Graffiti. وتتصف بأنها قصيرة تمثل شواهد قبور، أو أدعية دينية، أو تخليدًا لحوادث شخصية. وسمَّاها المؤرخون والجغرافيون العرب القدامى لغات العرب البائدة، أي: التي لم تكن مستخدمة في العصر الجاهلي السابق لظهور الإسلام، ويقابلها لغات أو لهجات العرب الباقية كلهجة الحجاز ولهجة تميم، وغيرهما من لهجات القبائل العربية قبل الإسلام. وهذه اللغات أو بالأصح اللهجات البائدة هي:

١ - الصفوية:

هي لغة النقوش المكتشفة في بادية الشام التي سُمِّيت بهذا الاسم نسبة

إلى تلول الصفا الواقعة شرق اللجاة في منطقة حوران جنوبي سورية، وهو المكان الذي اكتُشفت فيه أولى النقوش المكتوبة بهذه اللهجة في عام ١٨٥٧. ويعود تاريخ تلك النقوش إلى الفترة الممتدة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي. ويبلغ عدد المكتشف منها حتى الآن أكثر من ثلاثين ألف نقش، معظمها من البادية الأردنية. وقد نُقشت في معظمها على الصخور والأحجار بخطٍ يبلغ عدد أحرفه ثمانية وعشرين حرفًا، مشتق من الخط المُسند الذي يعود بأصوله إلى اليمن، وتغيرت فيه أشكال بعض الحروف. تتصف لغة النقوش الصفوية، كالنقوش الثمودية واللحيانية باستخدام حرف الهاء أداةً للتعريف بدلًا من «ال» التعريف التي تظهر في النقوش النبطية والعربية، كقولنا: ه م ل ك، أي: الملك، و ه ر ج ل، أي: الرجل، و ه ب ي ت، أي: البيت[١٣].

٢- اللحيانية:

هي لغة القبائل التي كانت في مملكة لحيان في منطقة العُلا (ديدان) في شمال غربي شبه الجزيرة العربية، التي امتد نفوذها من شمال يثرب (المدينة المنورة) إلى خليج العقبة الذي سُمّي خليج لحيان، وتؤرخ نقوشها بما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي. تتصف النقوش اللحيانية التي بلغ عدد المكتشف منها نحو أربعمئة بالقِصَر. واللِّحيان بالعربية، بكسر أوله: خدودٌ في الأرض يخدها السيل، الواحدة لِحيانة، واللِّحيان: الوَشَلُ، والصَّديع في الأرض يخر فيه الماء، وبه سميت بنو لحيان، وليس تثنية اللَّحَى.

(١٣) من أحدث الدراسات عن اللهجة الصفوية: «لغة النقوش الصفوية وصلتها بلغة البادية الشمالية الأردنية» للدكتور زياد عبدالله الطلافحة، المفرق مدينة الثقافة الأردنية ٢٠١٧.

٣- الثمودية:

تحدثت بها قبائل ثمود التي استوطنت مناطق مدائن صالح وتيماء وتبوك والعُلا في شمال غربي شبه الجزيرة العربية منذ القرن الثامن قبل الميلاد، إذ ذكر الملك الآشوري شاروكين الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) في إحدى حولياته أنه انتصر عليهم. وقد عُثر على نقوشها في الحجاز وشمال غربي شبه الجزيرة وجنوبي الأردن وباديته وشبه جزيرة سيناء منقوشة على الأحجار والصخور، ويبلغ عددها نحو ثلاثة عشر ألف نقش يعود تاريخها إلى ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الخامس الميلادي. وتتصف الأسماء فيها باستخدام الهاء أداة للتعريف، مثل هجمل: الجمل، و هأسد: الأسد(١٤).

تمثل هذه اللهجات (الصفوية واللحيانية والثمودية) البدايات الأولى للغة العربية التي ظهرت واضحة فيما بعد في المعلقات والقرآن الكريم اللذين يمثلان اللغة العربية التي وصلت أوج تطورها فيهما. هذا، علمًا أن هناك كتابات عربية ظهرت بالخط النبطي المتأخر الشبيه بالخط الكوفي، وبلغةٍ عربية مختلطة بكلمات آرامية، كانت صلة الوصل بين اللهجات المذكورة والعربية الفصحى، وأقدمها **نقش النمارة** الذي عثر عليه رينيه دوسو وفريدريك ماكلر في عام ١٩٠١ في قرية النمارة شرق جبل العرب، المكتوب على شاهدة قبر بازلتية لامرىء القيس بن عمرو الأول (٢٨٨-٣٢٨م) أحد ملوك الحيرة المناذرة، والمؤرَّخ بعام ٣٢٨م، والمؤلف من خمسة سطور. وحروف النقش متصلة بعضها ببعض، وهذه ظاهرة غير معروفة في الخطوط الآرامية، وتدل على ما يبدو على بداية تشكل الخط والكتابة العربية.

(١٤) الزعبي، آمنة صالح الزعبي، اللهجة العربية الثمودية، دراسة تاريخية مقارنة في الأصوات والأبنية والدلالة في ضوء الفصحى واللغات السامية، عمَّان، الأردن ٢٠٠٦.

ب- **لغات العرب الجنوبية: (لغات اليمن القديمة):**

تشمل اللهجات المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية، التي يحلو لبعض الباحثين تسميتها باللغات الصيهدية؛ لأن الكثير من نقوشها اكتُشف في الواحات والأودية والقيعان المحيطة برمال سمَّاها ياقوت الحموي «رمال صيهد» (حاليًا رملة السبعين) وهي «مفازة بين مأرب وحضرموت»(١٥). وكُتبت بالخط «المُسنَد» المؤلف من تسعة وعشرين حرفًا ساكنًا (فيه رمزان يعبران عن السين) تتميز بشكلها القائم الذي يستند بعضها فيه إلى بعض، لذلك سمَّاه العرب «الخط المسند». وقد بدأ استخدامه على ما يظهر في ممالك سبأ وقتبان في نهاية القرن التاسع وبداية الثامن قبل الميلاد. وربما اقتبس من الأبجدية السينائية في القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد. له أشكال هندسية مرتبة تظهر فيها الزوايا القائمة والأشكال المستطيلة والخطوط الأفقية والعمودية بوضوح. واتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار، إلا في النقوش المبكرة حيث استخدم «خط المحراث»، أي: البدء من اليمين إلى اليسار، ثم العودة من اليسار إلى اليمين. يتصف خط المسند بأن الكلمات فيه يفصل بينها خط عمودي، وليس فيه حروف منقطة، ويُكرَّر الحرف في الكلمة للدلالة على التشديد، ولا تتغير أشكال الحروف أينما وقعت، في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها. ونُقشت معظم نصوصه على الصخور التي كانت مادة الكتابة الأساسية في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية. وقد بقي

(١٥) بيستون، ألفريد، لغات النقوش اليمنية القديمة نحوها وصرفها، في: مختارات من النقوش اليمنية القديمة، محمد عبد القادر بافقيه، ألفريد بيستون، كريستيان روبان، محمود الغول، تونس ١٩٨٥، ص ٦٨، ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الثالث، ص ٤٤٨.

مفهومًا في اليمن حتى القرن العاشر الميلادي، إذ قام مؤرخ وجغرافي اليمن المشهور أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني (٨٩٣-٩٧٠م) بترجمة بعض النقوش المكتوبة به، وأوردها في كتابيه المعروفين عن الجزيرة العربية «الإكليل» و«صفة جزيرة العرب». وحديثًا كان المستشرق الألماني هاينريش فريدريش فيلهيلم غيسينيوس H.F.W. Gesenius (١٧٨٦-١٨٤٢) أول من تمكن من فك رموز الخط المسند[١٦]. وتتألف لغات العرب الجنوبية من لهجات نذكرها فيما يلي:

١ - اللهجة المعينية:

هي لهجة مملكة معين التي تُعَدُّ أقدم الممالك العربية في اليمن، وامتد تاريخها من نحو ١٣٠٠ إلى نحو ٦٣٠ ق. م. ونشأت في منطقة الجوف الواقعة بين نجران وحضرموت، وامتد نفوذها إلى شمالي الحجاز حيث دخلت مدن ديدان والعُلا ومعان في فلكها. ويرى بعض الباحثين أن النطق الأقدم للاسم هو معان الذي تحول مع الزمن إلى «معين»، أي: نبع ماء[١٧]. اكتُشفت معظم نقوش اللهجة المعينية في قرناو (خربة معين حاليًّا) ويثيل (خربة براقش حاليًّا). وعُثر على نقوشٍ معينية خارج اليمن، في ديدان (العُلا حاليًّا) المستوطنة التجارية التي أسسها المعينيون في شمال غربي شبه الجزيرة العربية على طريق التجارة الواصلة ما بين اليمن والشام، وفي جزيرة ديلوس الإغريقية الواقعة في بحر إيجة، وفي سقَّارة بالقرب من القاهرة. ويعود تاريخ تدوينها إلى الفترة ما بين القرن السادس والثاني قبل الميلاد.

يتصف الفعل في اللهجة المعينية ببدايته بحرف السين، مثلًا: سفعل:

(١٦) بيستون، ألفريد، المرجع السابق، ص ٦٨.

(١٧) مهران، محمد بيومي، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٢٦٤.

سأفعل. ويبدأ ضمير الغائب المفرد المذكر بالسين: سو: هوَ، و سي: هيَ التي تقابل (شو) و(شي) باللغة الأكادية، إذ إنّ قلب الشين سينًا، والسين شينًا كان مألوفًا في لغات المشرق العربي القديم.

٢- اللهجة السبئية:

هي اللهجة التي استُخدمت في مملكة سبأ التي تُعدُّ من أهم الممالك العربية في جنوبي شبه الجزيرة العربية، وتعود بدايات تاريخ نشوئها إلى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، ويرد أقدم ذكر لها في نصٍ آشوري من عهد الملك شلمنصَّر الثالث (من العام ٨٣٨ ق. م) الذي يذكر «أنه أُحضرت جمال وخيول ونباتات عطرية وأحجار نفيسة وغير ذلك من سبأ إلى بلاد آشور». وتذكر نصوص آشورية من عهود تيكلات بيليصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) وشاروكين الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) وسنحريب (٧٠٥-٦٨١ ق.م) أن هؤلاء الملوك كانوا يتلقَّون الجزية من الملكات العربيات «زبيبة» و«شمسي»، ومن الملكين السبئيين «يثع أمرا» و«كرب إيلو»، اللذين كانا بلا شك ممثلي ملك سبأ في واحات شمال غربي شبه الجزيرة العربية، التي تعبرها الطريق التجارية القادمة من الجنوب والمتجهة نحو الشام ومصر، والتي كانت مملكة سبأ تسيطر عليها.

خلَّف السبئيون الكثير من النقوش التي كتبوها بالخط المسند، واتّسمت بأنها قصيرة ومواضيعها دينية في الغالب. ويمكن تقسيم مراحل تاريخ اللهجة السبئية إلى ثلاث هي: مبكرة حتى ميلاد السيد المسيح، ووسطى من القرن الأول الميلادي حتى القرن الرابع الميلادي، ويمثلها العدد الأكبر من النقوش المكتشفة، وحديثة حتى القرن السادس الميلادي. وأهم ما يميز لهجة سبأ استخدام حرف الهاء في أفعال السببية كقولنا: هسفعل بمعنى سأفعل، في حين

تستخدم اللهجات الأخرى حرف السين. وقد سُمِّيت لهجة سبأ لهجة الهاء لكثرة ورود حرف الهاء في بدايات الأفعال. ويُعرَّف الاسم فيها بإضافة حرف النون إلى آخره، مثل: م ل ك ن: الملك، و ب ن ت ن: البنت. أما التمييم، أي: إلحاق حرف الميم بآخر الاسم فيدل على نكرة، مثل د م م: دم.

٣- اللهجة القتبانية:

هي لهجة مملكة قتبان التي قامت في الزاوية الجنوبية الغربية من اليمن، وتعود بداية نشأتها إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وسقطت في القرن الأول قبل الميلاد، وكانت عاصمتها مدينة «تمنع» (موقعها الحالي كحلان في وادي بيحان شمال غرب عدن) التي تعرضت لحريق مدمر في العام ٥٠ ق.م.

يعود الفضل في اكتشاف الكثير من نقوش هذه المملكة ونسخها إلى المستشرق النمساوي إدوارد غلازر الذي قام برحلات إلى اليمن ما بين ١٨٨٢ و١٨٩٤. ويعود تاريخها إلى الفترة ما بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي، وهي قصيرة ومواضيعها دينية، ولغتها شبيهة باللغة المعينية والسبئية. وأشهر تلك النقوش «نقش النصر» الذي يُعدُّ من أقدم مصادر تاريخ قتبان، ويتحدث عن حرب على مملكة «أوسان» المجاورة انتهت بسقوط «أوسان» تحت سيطرة قتبان.

٤- اللهجة الحضرمية:

هي لهجة المملكة اليمنية القديمة التي نشأت في المنطقة الممتدة بين عدن في الغرب وعُمان في الشرق، والتي خضعت في معظم مراحل تاريخها إلى ممالك معين وسبأ وحِمْيَر، وكانت عاصمتها شبوة. ويظهر من بعض النقوش المكتشفة أن علاقات هذه المملكة التجارية وصلت إلى

مناطق بعيدة في الهند والحجاز وسورية. وهي تمتد زمنيًا من القرن السابع قبل الميلاد إلى نهاية القرن الثالث الميلادي. وتتحدث بعض النقوش عن عناية ملوك حضرموت بشؤون مملكتهم الداخلية، كما هو الحال في النقش الذي تركه المدعو «شكم سلحان بن رضوان»، أحد كبار موظفي المملكة، الذي يذكر بناء سور وباب وتحصينات لحصنٍ يُدعى «قلت»، يُشرف على وادٍ تقطعه الطريق الواصلة بين مدينة «حجر» وميناء «قَنَا». وهناك نقش يتحدث عن «العُزيليط» ملك حضرموت الذي استقبل وفودًا من تدمر، ومن الهند، وهو ما يدل على أن علاقات حضرموت التجارية امتدت لتصل إلى مناطق بعيدة كالهند وسورية(١٨).

ج- **لغات الحبشة (اثيوبيا):**

تشمل الجعزية والتغرية والتغرينية والهررية والأمهرية. وهي لهجات القبائل العربية التي هاجرت من اليمن إلى الحبشة من القرن السابع قبل الميلاد.

وقد كُتبت بخط مشتق من الخط المُسند يتألف من مئة واثنين وثمانين رمزًا، يمثل كل رمز صوتًا صامتًا مع الحركة التالية له. إن أقدم لغات الحبشة (الجعزية) التي عُثر على نقوشٍ كُتبت بها يعود تاريخها إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع الميلاديين، وساد استخدامها في مملكة أكسوم الحبشية التي بلغت أوج قوتها وازدهارها في القرن الرابع الميلادي، واستخدمتها قبائل الفلاشا اليهودية الدين الإفريقية الأصل. بدأت الجعزية بالتراجع منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وانحصر استخدامها في المجال الديني، إذ أصبحت لغة الكنيسة الحبشية؛ وحلت محلها في الاستخدام

(١٨) مهران، محمد بيومي، المرجع السابق، ٢٤٠.

اليومي اللهجة الأمهرية التي ما تزال حتى اليوم اللغة الرسمية في الحبشة - التي سُميت «إثيوبية» - من القرن الرابع الميلادي الذي شهد انتشار المسيحية في تلك المنطقة من شرقي أفريقيا.

أما اللهجات الأخرى كالتغرية والتغرينية والهررية فهي لهجات محلية انتشرت في بعض مناطق الحبشة وإرتيريا والقرن الأفريقي.

* * *